مَوْسُوعَةُ

فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ البَلَدِ

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة البلد

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة البلد

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠ ﴾

ابتدأت سورة البلد بالقسم بمكة المكرمة، ليدل على عظمة ما بعده من بيان، وتشويقاً لمعرفة ما بعده من كلام رب العباد. فقال الله تعالى ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴾ ومعناه أُقسِمُ بهذا البلد الذي هو مكة. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: أقسم يا محمد بهذا البلد الحرام، وهو مكة. وكذلك قال أهل التأويل[١] وأفاد حرف ﴿ لَآ ﴾ التعظيم للمُقسَم به. ثم نوه سبحانه وتعالى باسم الإشارة لمكة ﴿ بِهَٰذَا ﴾ لإعطاء التعظيم، وبيان أنه هذا البلد المعروف عندكم بقدسيته. وكذلك من تعظيمها أن سماها سبحانه وتعالى بالبلد ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴾ باعتبار أنها معلومة معروفة.

ثم يستمر الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴾ فأنت أيها الرسول صلى الله عليه وسلم قد أحل الله لك أن تقاتل فيه، وتُنجز ما وعدك الله تعالى به. قال ابن عباس رضي الله عنهما، ومجاهد رحمه الله تعالى: حَلَّ لك ما صنعته في هذا البلد، من قتل وغيره[٢] وفي هذا تعظيم لمكانة الرسول صلى الله عليه وسلم بأن أحل له ذلك، في البيت الحرام. وبيان أنه عليه الصلاة والسلام على حق فيما يتعامل به مع أهل الباطل. وتخويف للمشركين بأنه لا يمنع الرسول صلى الله عليه وسلم أي مانع من مقاتلتهم في مكة. وبأن وجودكم في البلد الحرام مع ظلمكم لا يعني أنكم في وقاية من القتل. ومن دقائق البيان

---

(١) ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٠١/٢٤)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٥٠/٨)

تكرار اسم مكة بدلالة ﴿ٱلْبَلَدِ﴾ للتعظيم لها، بأنه إذا تم التنويه عنها بالبلد في سياق القسم والتحليل فليس غيرها بهذه المنزلة والمكانة الرفيعة والمقدسة.

ثم يقسم الله تعالى بقسم يماثل في أسلوبه بالقسم بمكة البلد الحرام، فقال تعالى ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ ووالد وما نتج عنه من الذرية. وهنا لم يسمه، كما أنه لم يسمّ مكة، فأشار إليها بالبلد، وأشار هنا له بالوالد وما ولد. ولذلك ذهب أهل التفسير إلى أنه آدم عليه السلام، وما ولد من الذرية. قال مجاهد، وقتادة، والضحاك، والحسن، وأبوا صالح: ﴿وَوَالِدٍ﴾ آدم عليه السلام ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ أي: وما نسل من ولده. قال القرطبي رحمه الله تعالى: أقسم بهذا لأنهم أعجب ما خلق الله تعالى على وجه الأرض، لما فيهم من البيان، والنطق، والتدبير، وفيهم الأنبياء، والدعاة إلى الله تعالى[١] وفي هذا إظهار لعملية التكاثر والتناسل التي تبين عظيم قدرة الله تعالى، لتشمل كل والد وما ولد فيما بعد من ذرية آدم. فهو لفت الانتباه إلى عظيم تدبير الله تعالى الذي يجب أن يُطاع ويُوحَّد، ولا يُشرك به مخلوقاً من خلقه سبحانه وتعالى.

ثم يأتي جواب القسم. فقال تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ لقد خلق ربكم هذا الإنسان في نصب من التعب والمشقة. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى. وأولى الأقوال في ذلك بالصواب: قول من قال: معنى ذلك أن خُلِق يُكابد الأمور، ويعالجها. فقوله في ﴿فِى كَبَدٍ﴾ في شدة[٢] بما يبين أن طبيعة حياة هذا الإنسان مبنية على المكابدة، ومعالجة الأمور بما يناسبها. فقد مكنه الله تعالى من تلك القدرات العقلية والجسمية. مما يستوجب الحمد والشكر لله تعالى بالاعتقاد القلبي، وباللسان، بأن يلهج بالشكر لله تعالى وحده لا شريك له، وبالطاعة، أي: أن يطيع ربه عَزَّ وجل وذلك بمتابعة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

ومن فوائد ذلك أن الله تعالى جعل الطبيعة البشرية مجبولة على بذل الجهد، وحصول التعب، مع القدرة على المعالجة بما وهب الله تعالى الإنسان من القدرة على التفكير والبحث في الحلول والتطوير، والبناء، وتحقيق المصاح، ودفع المضار. مما يبين أن الحياة الدنيا هي حياة نصب وتعب، بينما الحياة الآخرة حياة نعيم لا نصب ولا تعب فيها.

ثم بعد أن ذكر تبارك وتعالى ما منح اللهُ تعالى الإنسان من القدرة على المكابدة، يبين ويوضح ظنون وحسبان الإنسان الخاطئ بهذا التمكين. فقال الله تعالى ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ أيظن هذا الإنسان أنه حر في تصرفاته، فلا يقدر عليه أحد فيما يتصرف به وفيه، وكأنه لا سلطة ولا سلطان عليه يمنعه.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤١/٢٠)

(٢) ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤١٢/٢٤)

بما يفيد أنه حسبان خاطئ يؤدي إلى الغرور. وقد ورد البيان الكريم بصيغة الاستفهام التقريري، الذي يقرر به ما عليه الإنسان من الحال التي تستحق اللوم والتوبيخ، والإنذار والتعليم بأن الله تعالى هو الذي مكنه، وهو الذي جعل شريعته ضابطة له في تصرفاته حتى لا يطغى على غيره ممن هو أقل منه.

مما يبين عظيم قدرة الله تعالى، وعظيم سلطانه، وكمال تدبيره. إذ أعطى الإنسان ما يتمكن به من العيش في هذه الحياة الدنيا، والقدرة على التصرف، ولكن مشكلة الإنسان في حسبانه وظنه هذا الذي حاد به عن الطريق المستقيم باستعلائه، واعتقاده بأنه لا يقدر أحد على ضبط تصرفاته. فيلوم الله تعالى جنس هذا الإنسان على هذا المفهوم الخاطئ، وينبهه على أن هذا المفهوم عن هذه الخاصية النفسية هو مفهوم غير صحيح، حتى يتجنبه، ويضبط عقله وتصرفاته بضابط دينه وشرعه العظيم، الذي أنزله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

وفي قوله تعالى ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴾ معالجة للإنسان عندما تأمره نفسه بالباطل. فيتذكر قوله تعالى ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴾ ومصححة لنواياه عندما يقصر في أمر الطاعة، فيقول لنفسه ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴾ وموعظة يعظ بها غيره على التقصير وعلى المجاوزة، بأن يقول له ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴾ فإنها موعظة عظيمة إذا تذكرها الإنسان في جميع أحواله. فإنها تهذب أخلاقه، وتضبط تصرفاته.

ثم يخبر الله تعالى بأثر هذا المفهوم على حال هذا الإنسان في إنفاقه على ملذاته وشهواته. فقال عَزَّ وجل ﴿ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴾ أي: أنفقت مالاً ﴿ لُّبَدًا ﴾ أي: كثيراً، فيقول ذلك على سبيل المفاخرة والمباهاة بذلك الإسراف، ومدح النفس بإتلاف الكثير من المال في الوجاهة والباطل. ثم يخبر الله تعالى عن سبب هذا التمادي في إهلاك المال، والتفاخر به. فقال تعالى ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴾ يعتقد في حسبانه وظنه الباطل أنه لا يعاينه ولا يراقبه، ولن يحاسبه أحد على باطله في الإسراف والتباهي. فلا يعتقد أن الله تعالى يراه، وسيحاسبه على ما أعطاه ومَكَّنَهُ فيه. وأورد الله تعالى هذا البيان بصيغة السؤال ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴾ الذي يشتمل على اللوم والإنكار على هذا الاعتقاد الباطل، والتوبيخ على هذا الصنيع الذي يجب أن لا يكون منه مع ما أنعم الله تعالى به عليه. وفي هذا عظيم التحليل لشأن الإنسان، والتفسير الدقيق لتصرفاته الباطلة، وأسبابها.

مما يبين أن الإنسان إذا خلا قلبه من الإيمان بالبعث والحساب، فإنه يبطر، ويتمادى بما عنده من أنواع الخير الذي مكنه الله تعالى فيه. وهذا يُظهر عظمة الإيمان بالله تعالى، وبيوم القيامة. وأثره على العمل بدين الله تعالى الذي أنزله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم. مما يبين أهمية الضوابط للإنسان، فهي التي تحكم مساره، وتضبط عقله وتصرفاته. وإلا لطغى الناس بعضهم على البعض. مما يبين قوة الحاجة البشرية إلى شريعة الله تعالى في ضبط العلاقة فيما بينهم، ومنع وتحجيم تعدي بعضهم على بعض. مما يبين الفرق بين المؤمن بالله تعالى وبالبعث والحساب وبين الكافر المنكر لذلك. ولهذا يظهر ويتجلى أثر الإيمان وقوته في تصرفات الإنسان.

ثم يُوجِّهُ اللهُ تعالى هذا الإنسان، ويصحح له حسبانه الخاطئ من خلال تذكيره بما أسدل عليه من نعمة الخلقة العظيمة، التي جعلته في أحسن تقويم. فقال عَزَّ وجل ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴾ ألم نمكنه بالبصر والنظر؟ من خلال نعمة العينين التي خلقناها له. سؤال يعلل ويبين له خطأ ما يعتقد من الحسبان الجائر، والمتفلت من غير محاسبة ولا ضابط له. فيرده الله تعالى إلى نعمة حواسه التي منها العينين.

ثم يعطف تبارك وتعالى على العينين آلة النطق المكونة من اللسان والشفتين. فقال الله تعالى ﴿ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴾ فجعلنا لهذا الإنسان لساناً وشفتين، ليتمكن بهما من النطق والكلام والتعبير عما يريد البوح به، والتي يجب أن يستخدمها في الحق الذي يبصره بعينيه، مما يرى في الكون من الأدلة والحجج، وما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من الآيات والنذر. فإن الأولى به أن يستخدم بصره ولسانه وشفتيه فيما ينفعه. ويحمد الله تعالى على هذا الإنعام بكمال الطاعة والامتثال لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم.

وفي هذا لفت الانتباه إلى العلاقة بين اللسان والشفتين، بأنهما الآلتين التي يتمكن بها الإنسان من النطق، والتعبير عن مراده بالصوت والحروف. فجعله ناطقاً متكلماً، وليس مثل غيره من المخلوقات التي لها لسان وشفتين إلا أنها قاصرة على الأصوات التي تتفاهم بها مع نظائرها.

ثم يتدرج التنبيه في المعالجة إلى هداية الله عَزَّ وجل لهذا الإنسان، فقال تبارك وتعالى ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ أي: فألهمه الله تعالى معرفة طريق الحق من الباطل. كما قال تعالى في سورة الشمس ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ ﴾ فعرفها وأفهمها ما يجعلها تدرك الخطأ من الصواب، والحق من الباطل، حتى تتحمل مسؤولية ما يكون منها. فعليه أن يتحمل مسؤولية اختياره. قال عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه في معنى

﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ أي: الخير والشر[١] لأن النجد هو الطريق. والنجدين: الطريقين. طريق الخير وطريق الشر. فأوضحها وبينها للإنسان بما أرسل من الرسل وإنزال من الكتب، وما أودع في النفس من الإلهام، كما قال تعالى في سورة الشمس ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ ﴾ مما يدل على عظمة خلق الله تعالى، وعظمة تدبيره، التي تُوجب على الإنسان طاعة الله تعالى، وذلك باتباع رسوله صلى الله عليه وسلم.

﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾ ﴾

وبعد بيان الله تعالى لحال هذا الإنسان، وما مِكَّنَهُ اللهُ تعالى به من القدرات التي يتحمل بموجبها مسؤوليات تصرفاته فإن البيان الكريم ينتقل إلى الوعظ بما سيكون في الآخرة. فقال الله تعالى ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴾ فإن هذا الإنسان بتصرفاته لم يعمل بما يجعله يقتحم عقبة الآخرة. فهلا أنفق ماله فيما ينجيه من العقبة. لأن العقبة هي ما يعترض الإنسان في طريقه، فيحتاج إلى قوة وطريقة يقتحم بها الذي اعترضه. قال ابن عمر رضي الله عنهما: إنه جبل في جهنم[٢] بل قد أورد البيان تجاوزه بدلالة الاقتحام ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴾ بما يدل على حاجة الإنسان إلى القوة من الأعمال الصالحة التي تمكنه من عبور وتجاوز العقبة، فينجيه الله تعالى بها من ذلك الموقف، فيتجاوزها بما قدم من الطاعة لربه عَزَّ في علاه.

ولذلك أورد الله تعالى بعدها المنجيات منها. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴾ إنك أيها الْمُخَاطَب لا تعرف العقبة. سؤال تعظيم لهذه العقبة، فإنك أيها الإنسان لا تعرفها. وهو من أساليب شد الانتباه للمتابعة، والتشويق لمعرفتها. فقال الله تعالى إن من أسباب تجاوزها ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾ أي: فكها من الرق، وذلك بعتقها، أو بذل الجهد في ذلك بما يمكن من فكها. ومن ذلك فك الأسير المسلم من الأسر. وهي تشمل كل رقبة مؤمنة احتاجت لذلك الفك والعتق.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٤٧/٤)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٥٤/٨)

ثم تلاها خيار آخر لتجاوز هذه العقبة. فقال الله تعالى ﴿ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ﴾ أو أن يُطعم الطعام للمستحقين في يوم ذي مجاعة في الناس. ثم تلاها خيار ثالث: فقال الله تعالى ﴿ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ﴾ أو أن تطعم يتيماً ذا قرابة. ثم تلاها خيار رابع: فقال الله تعالى ﴿ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ﴾ وهو الفقير الذي اشتد فقره، فكأنه لا مس التراب من شدته. وقد ورد البيان للمسكين بأدق ما يكون من الوصف ﴿ ذَا مَتۡرَبَةٖ ﴾ فحاله كحال من التصق جسده بالتراب من الضعف الذي يعيشه ويعانيه.

مما يبين فضائل هذه الأعمال من الخير. وشدة عناية الله تعالى بعباده، وتسخير بعضهم لبعض في أعمال الخير والبر. وهذا من كرم الله تعالى، بما يبني بتشريعه الحكيم مجتمعاً متراحماً ومتلاحماً، يشد بعضه بعضا. مما يفيد قوة حاجة الغني وافتقاره لذوي الحاجات. كما هي شدة حاجة الفقير والمسكين واليتيم إلى غيره. فقد جعل الله تعالى حوائج الناس تنقضي بينهم، ليتحقق به التراحم والتواد.

ثم إن هذه الأعمال لا تكون فاعلة ومقبولة إلا بشرط الإيمان وطاعة الله تعالى، حيث قال عَزَّ وجل ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ﴾ فقد ربط السياق الكريم بين وسائل اقتحام العقبة وبين الإيمان وما بعدها من الشروط بحرف ﴿ ثُمَّ ﴾ الذي يفيد الترتيب والتلازم. فهناك ثلاثة شروط لذلك: الأول: ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ وهو الإيمان بجميع أركان الإيمان، وما يتبعه من حقيقة الإيمان التي تثبتها الطاعة والامتثال لدين الله تعالى، بأداء العبادات، والامتثال لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم. والثاني: هو ﴿ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ﴾ وهم الذين يوصي بعضهم بعضاً بالصبر على طاعة الله تعالى، وعن المعصية، وعلى أقداره عَزَّ وجل، وتوخي الجزع. مع الصبر على الإنفاق في أوجه الخير، وذلك برعاية اليتيم وإطعام المساكين والفقير، والكسب الحلال. وغير ذلك من الخير.

وأما الثالث: فهو ﴿ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ﴾ أي: يوصي بعضهم بعضاً برحمة الخلق. وبالتالي هم متوادُّون ومتعاطفون ومتحابون فيما بينهم. فتظهر بينهم الرأفة والرحمة، والتعاون. فهؤلاء قال الله تعالى فيهم ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ﴾ أي: أنهم هم الذين يأخذون كتبهم يوم القيامة بأيمانهم، وهم أصحاب اليمين.

ثم ينتقل البيان إلى وصف أهل الكفر، فقال تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ﴾ فأما الذين كفروا وأنكروا حجج الله تعالى وبراهينه فإنهم هم الذين يأخذون كتبهم بشمائلهم، فكما أن أصحاب

الميمنة هم أصحاب الجنة، فإن أصحاب المشأمة هم أصحاب النار التي هي ﴿عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ﴾ فالنار عليهم مطبقة، فليس لها باب للخروج، ولا راحة منها ولو باليسير والقليل، بل مقلقة عليهم. اللهم نسألك العافية وأن تجعلنا من المقربين وجميع المسلمين يا رب العالمين.

وأحمد الله تعالى وأشكره على ما أنعم به عليَّ من شرف هذا العمل، فوفقني على إتمام سورة البلد. ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم. والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله أجمعين.